تأسيس المؤرخين المعاصرين لأساطير جديدة

من شمر ذي ريدان إلى شمر يهرعش «الثاني» في تاريخ اليمن

فاضل الربيعي *

■ ما من دارس للتاريخ اليمني القديم إلاّ وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شخصيات أسطورية، غامضة وعجائبية، تجترح مآثر بطولية يصعب تخيلها، مثلاً: احتلال بابل وغزو الهند وإخضاع فارس. ومما يضاعف من درجة هذه الأسْطَرَة، أن كتب الإخباريين العرب تعج بتفاصيل مدهشة حقاً عن «تاريخ» هذه الشخصيات، إذ غالباً ما يجري تصويرها على أنها تنتمي الى سلالات ملكية حكمت اليمن القديم، كما يجري تحديد أنسابها في شجرات أنساب سبأ وحمير. وفي مواجهة هذه الصورة شبه النمطية لملوك اليمن القدماء وقف المؤرخون العرب (المعاصرون) موقفاً نمطياً: الردّ على هذه الصور اللاتاريخية باتهام الإخباريين بـ«الوضع» و«الاختلاق».

ولم يكن أمراً نادراً، بأي حال من الأحوال، أن نصغي الى دعوات مؤرخ جليل مثل الراحل د.جواد علي (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) لاعتبار هذه المواد الأسطورية مجرد مختلقات إخبارية. وعلى منوال هذا النسيج، نسج آخرون «نمطاً» من الازدراء لمرويات ابن الأثير، وابن الكلبي، وحمّاد الراوية، والثعالبي، ووهب بن مُنَبِّه، وعُبيد بن شُرْية الجُرْهُمي بل عدّت كتب هامة، وتاريخية، مجرد مرويات لا قيمة لها. كان «نمط» الازدراء هذا، ولا يزال شائعاً، ويلقى دعماً غير محدود من كتّاب التاريخ من التيار التقليدي، وربما من قرّاء عَرضيين وهواة في حقل التاريخ والأسطورة.

وعلى هذا النحو، تبدّدت مرات عدة، فرص التأمل النقدي في هذه الصور اللاّتاريخية، الأسطورية والعجائبية لـ«ملوك» اليمن القديم، لأجل رؤية أكثر دقة وحصافة تعيد تصنيف المواد الإخبارية وتفك الاشتباك داخل النصوص بين ما هو تاريخي وبين ما هو أسطوري. وإن تاريخ اليمن القديم الذي يمكن إعادة تقليب صفحاته بهدوء، في إطار محاولة أعمّ لفهم تاريخ العرب طفولتهم التاريخية البعيدة، يوفر أمام الباحث فرصاً مثالية لإنجاز عمل من هذا النوع شرط امتلاك أداة بحث نقدية جديدة وراديكالية.

لقد بلغ الغموض الذي أحاط ببعض هذه الشخصيات الملكية حداً صار معه اسم الملك الأسطوري شمر يهرعش (يرعش) الأول – مثلاً – دالاً على ثلاث أو أربع شخصيات، كل منها تحمل الاسم نفسه، كما هو الحال عند د.جواد علي (المُفصّل) ومن دون أن تكون هناك مبررات كافية أو مفهومة. وبذا فُتح الباب على مصراعيه أمام دارسين آخرين لكي يقوموا هم أيضاً، بعمل اعتباطي صارخ: إضفاء صفة (الثاني) أو (الثالث) أو (الرابع) على اسم (سمر يهرعش) هذا. وهكذا أصبح في حوزتنا ٣ أو ٤ ملوك جدد دخلوا في قوائم ملوك اليمن القديم. ويعني هذا أن الكتّاب العرب ضاعفوا من أسطورية التاريخ اليمني الذي قاموا، أصلاً، بنقده، واتهموا إخبارييه القدماء بالاختلاق. ولكن، وحتى منتصف الثمانينات حين كان هذا هو الجو السائد في الدراسات التاريخية (اليمنية)، برز عامل جديد أثار ارتباكاً جديداً، ومثيراً، سوف يساعد – تالياً – في وضع حد لكل التشوشات بشأن (شمر يهرعش) هذا. فيومذاك حصل الباحث والمؤرخ اليمني مُطهّر علي الارياني على نقش بيت ضبْعان بالقرب من صنعاء، وقدم عنه قراءة معمقة حسمت الجدل – برأينا – نهائياً حول المسألة، وأمكن إخراج واحد، على الأقل، من هؤلاء الملوك من التاريخ لأن لا وجود له. يَسردُ نص النقش أحداثاً هامة تتعلق بوجود متمرد على حكم الملك اليمني إيلْشرح يحضب ويدعى شمّر يهحْمد أي يحمد نجح، بمساعدة قبائل موالية له، في الاستيلاء على مواقع استراتيجية، فأعلن نفسه ملكاً على سبأ وريدان.

لكن الملك الشرعي، ايلشرح يَحْضب، قاوم التمرد وخاضَ حرباً ضارية ضد شمر يهحمد والقبائل الموالية. بل وشنّ حملة تحقير وتشهير واسعة في خصمه من أجل طمس اسمه الى الأبد ومحوه من التاريخ بلا رحمة. ويبدو أنه نجح في ذلك نجاحاً باهراً، إذْ راح يكتب اسمه في النقوش التي كان يتركها في الصورة التالية: شمر ذي ريدان. أما شمّر فكان يعلن نفسه ملكاً على سبأ وريدان. ومن الواضح أن الطريقة التي كتب فيها الملك ايلْشرح يَحْضب اسم خصمه، شمر ذي ريدان، تشير بوضوح الى احتقاره والتقليل من شأنه ومن المكاسب العسكرية التي حصل عليها، وفي أفضل الأحوال اعتباره مجرد متمرّد استولى على ريدان وحسب فيما ظل المتمرد شمر يهحمد يحمد صامتاً حيال هذا التحقير ولم يبادر الى الرد، مكتفياً بنشر اسمه، شمر ذي ريدان، من جانب خصمه من دون لقب شخصي أو سياسي.

وعلى هذا النحو تم التعرف على شخصية تاريخية من خلال نقوش كتبها خصمه الملك اليمني إيلْشرح يحضَبْ. وما إن حصل المؤرخون المعاصرون على اسم (شمر ذي ريدان هذا، حتى سارعوا الى الافتراض أنه شمر يهرعش الثاني، وقاموا بإدخاله في القوائم الخاصة بملوك اليمن.

يَتّضح من هذا المثال أن طائفة من ملوك اليمن القديم لا وجود لهم قط، وإن بعضهم هو من مُخْتَلَقات المؤرخين العرب المعاصرين، لا الإخباريين القدماء وحدهم. والمثير للاهتمام في هذا النطاق المحدود من الفكرة أن المؤرخين المعاصرين الذين وجهوا نقداً لاذعاً، مُشْبَعاً بروح الازدراء وربما النفور من المخيال الأسطوري للإخباريين القدماء، انتهوا – عملياً – في نقدهم هذا، الى تأسيس أساطير تاريخية جديدة عبر ابتكار واختلاق شخصيات لا أصل لها، من ذلك (مثلاً) أسطورة حرق طارق بن زياد لسفنه. وهي أسطورة يمنية قديمة أعاد المؤرخون المعاصرون صياغتها، ثم أدخلوها التاريخ كخبر تاريخي. وبهذا المعنى أصبح النفور أو الدهشة من المخيال الإخباري، وقدرته على توليد صور لاتاريخية، عديم القيمة، وربما مصدر إعاقة أمام حرية أكبر في قراءة التاريخ.

يُحدّد كلٌ من وهب بن منبه (التيجان: ٣٧) والأندلسي (نشوة الطرب في أخبار جاهلية العرب: ١٣٢) الإطار التاريخي المقبول لظهور هؤلاء الملوك وانغماسهم في صراعات محلية ضارية: عصر الحروب اليونانية – الفارسية، زهاء ٣٠٠ ق.م. وهما – معاً – يرسمان تصوراً عن عصر ملوك الطوائف في اليمن، وهو عصر تاريخي حقيقي يتوافق مع انتصارات الاسكندر المقدوني على فارس. يكتب الأندلسي (ص١٤٥) قائلاً إن ظهور ملوك الطوائف في اليمن يتوافق مع «كائنة الاسكندر في قتل دارا ملك الفرس». كما يتوافق مع السيل العرم، أيّ انهيار سد مأرب وبدء هجرة اللخميين من اليمن.

وهذا تصور مقبول مبدئياً لأن تفكك اليمن القديم لم يجر – عملياً – بفعل انهيار سدّ مأرب. فمثل هذا السبب سيكون سبباً «أسطورياً»، إذا ما أُخذ بمعزل عن الأسباب الأعمق والأكثر وجاهة، نعني تراخي قبضة فارس ثم انهيار نفوذها في اليمن بعد هزيمتها أمام الاسكندر. وشجع انهيار فارس، اقيال اليمن وزعماء القبائل على التمرد ضد السلطة المركزية، والاستقلال عنها في مخاليف ودويلات وممالك صغيرة.

وفي هذا الإطار وقع، في وقت ما من حكم ايلْشرح يَحْضب، تمرد شمر يهحمد الذي افتُرض خطأ أنه شمر يهرعش (يرعش) في مؤلفات المعاصرين. ولذا يمكن – بسهولة – إخراج شمر يهرعش الثاني، هذا، من التاريخ. والأمر نفسه ينطبق على اسم ملك اسطوري آخر لطالما دارت حوله أساطير ومَرْويات نقلتها سائر المصادر القديمة، نعني الملك اليمني افريقيس بن ناشر النعم (ياسر يهنْعم في النقوش). ويزعم الأصفهاني (تاريخ الأصفهاني: ١٠٨) إن افريقيس ابنٌ لأبرهة، وأنه ولي المُلْكَ بعد ناشر النعَمْ. بينما يزعم أهل اليمن – استناداً الى الأندلسي والأصفهاني – ان ناشر النعمْ هذا هو نفسه ذو القرنين، سُمّي بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره! بيد أن سائر الإخباريين القدماء كانوا يزعمون إن افريقيس هو الذي أعطى اسمه لافريقيا بعد أن سار إليها وأخضعها، بعدما أخضع الهند وفارس وبابل.

وواقع الحال أن لا وجود، على الإطلاق، لملك يمني من نسب حِمْيَر بهذا الاسم ولم يحدث قط أن اجترح ملك يمني مثل هذه المآثر، في أيٍّ من مراحل التاريخ القديم، اليمني أو العربي. وليس افريقيس هذا، بعد تدقيقات واسعة قمت بها، سوى اللقب الذي حمله القائد اليوناني العظيم، إمليانوس شيبون، إبان الحروب اليونانية – الفارسية. وفي هذا النطاق، تأكدت بشكل قاطع ودقيق أن إمليانوس (أو: افريقيس) كان معاصراً للملك الفارسي ارتحششت الثاني ملك فارس (٤٠٤–٣٥٩ق.م.)، وهو الملك الذي عرف عند اليونانيين بلقبه (إرطاكسراكيس)، والذي عرّبته القبائل العربية في فترات خضوع اليمن لحكم أو نفوذ فارس المباشر، الى (كسرى). فصار اللقب يطلق، آنئذ، على ملوك فارس.

ويبدو أن وهج الانتصارات اليونانية الباهرة، والمفاجئة، سحرت اليمنيين الذين ضاقوا ذرعاً بسطوة ونفوذ فارس. فتسرّبت فيه مَرْويات هذه الحروب، وتغلغلت عميقاً في الوجدان اليمني والعربي، وجرى تمثُّلها كانتصارات يمنية. وأصبح افريقيس اليوناني، في عصر تفكك اليمن وتراخي قبضة فارس فيها بعد هزائمها أمام الاسكندر، وحين بدأ ملوك الطوائف يتصارعون، كل بحسب قوته وطموحه، لانتزاع أجزاء من اليمن والاستقلال بها بعيداً عن الدولة المركزية، صار مثالاً جذاباً ربما أغرى أحد الاقيال على التشبّه به. فراح يضفي على اسمه هذا اللقب المستعار (افريقيس). وفي السياق استعار أساطيره الحربية التي أوصلت اليونانيين الى الهند مروراً ببابل وفارس ومصر.

---

* كاتب عراقي مقيم في هولندا.

دراسة تاريخية موثقة عن نكبة المسلمين في الأندلس: قرن أخير من المواجهات

الكتاب: الأمة الأندلسية الشهيدة
(تاريخ مئة عام من المواجهة
والاضطهاد بعد سقوط غرناطة).
المؤلف: عادل سعيد بشتاوي.
الناشر: المؤسسة العربية للدراسات
والنشر.
الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٠.

مراجعة: محمود السيد الدغيم

■ كتب المؤلف تصديراً للكتاب أن هذا الكتاب هو ثمرة ربع قرن من الاهتمام بتاريخ الأندلس، وهو أكثر من تعديل وتعقيب وتطوير لكتاب: «الأندلسيون المواركة» الذي صدرت طبعتُهُ الأولى منذ ١٧ سنة، إنه كتاب جديد خُصِّص لرحلة الأندلسيين بعد سقوط غرناطة الى أبعد مدى اهتدى اليه المؤلف في ما يخصُّ فَهْمَ تطور العلاقات بين الأندلسيين والاسبان في القرن السادس عشر الميلادي مع تسليط الضوء على علاقاتهم في القرن الثامن لفهم أسباب تبدل طبيعة العلاقات الدينية في شبه جزيرة آيبرية.

أعقب المؤلف تصدير الكتاب بفهرس محتوياته التي تضمّ مدخلاً تاريخياً، وملاحظات على متن الكتاب وخمسة فصول وملاحق ومصادر وجداول.

يمكننا تصنيف «المدخل التاريخي» في باب فلسفة التاريخ إذ يقرر الكاتب أننا «نحن أبناء الماضي، وإذا كان الماضي هو التاريخ فنحن أبناء التاريخ أيضاً(...) صنيعة الماضي الذي هو في وجداننا، وكما يحاول الطفل أن يتعرّف على نفسه من خلال التعرف على أبيه فإن معرفة التاريخ فرسخ مُهم في الطريق الى معرفة أنفسنا، كما ستكون هذه المعرفة مهمة كي يعرفنا الآخرون عندما نصبح جزءاً من التاريخ المجبول بخلطة الأحداث التي كونت حضارات الأسرة البشرية، وقبل أن تصبح معرفة الماضي طريقنا الى معرفة الحاضر. يجب أن نتحقق من أن صورة التاريخ هي صورة الأحداث الحقيقية التي صنعته، وليس المرآة التي نسج بعض المؤرخين على نولها ما قُدِّم لنا في المئة سنة الماضية على أنه التاريخ...».

ويُبدي الكاتب أسفه لوجود دعاة التأريخ الذين «لا يزالون يبحثون عن منافذ جدلية لاستخدامها جسراً يعبرون عليه الى ساحة الهجوم على الاسلام، وتأجيج الروح الصليبية التي نريد أن نعتقد أننا انتهينا منها». ويقدم المؤلف وجهة نظره في التاريخ والمؤرخ، والدين والمصالح، ومكانة الأندلس وأهلها بين شعوب الأرض باعتبارهم جسراً حضارياً بين الشرق والغرب، ويبدي رأيه بانهيار الخلافة القُرطبية، والحروب الصليبية الغربية، وصولاً الى القرن الثالث عشر الميلادي «عندما اجتاح القشاتلة والبرتغال والأرغونيون وسط الأندلس». وبحث في سقوط غرناطة، وبدء اضطهاد الأندلسيين، والتطورات الدولية أثناء سقوطها، وقيام الثورة الأندلسية الكبرى التي استمرت ثلاث سنوات أيام الملك فيليب الثاني الذي أصدر مرسوماً يُخوِّلُ الجنود قتل الأندلسيين وسبي نسائهم ابتداء من ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٥٧٠ م.

جامع قرطبة في الأندلس – إسبانيا.

ودفع الأندلسيون ثمن الحرية من دون أن تتحقق بل وقعت مأساة الأمة الأندلسية، وتمثلت المأساة «بمحاكم الشيطان» وتغريب الأندلسيين، واستيلاء أوروبا على تركاتهم، وبطش البرابرة بالحضارة الأندلسية التي تحولت الى طيف يداعب الخيال. «ووجد الأندلسيون المنفيون وطناً بديلاً في المغرب وتونس ومصر ودمشق والقسطنطينية وعشرات الدول والمدن، لكن آخرين عانوا كثيراً، فيما لقي بعضهم نهايته على يد الإخوة في الدين والقومية كما يؤكد المقري: (فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من المضرة...)».

وعنونَ المؤرخ الفصل الأول بـ«لماذا سقطت الأندلس؟» فضمّنه أحوال «آيبرية قبل الفتح» ابتداء من نزول الفينيقيين أجداد القرطاجيين على السواحل الجنوبية منذ سنة ١١٠٠ قبل الميلاد تقريباً وسيطرتهم المطلقة حين بنوا مُدناً أعطوها أسماء مدنهم اللبنانية مثل (قادس، وعدرة، وترشيش، ومالقة) ثم أسسوا قرطاجة في تونس سنة ٨٥٠ ق.م، ومنها انطلقوا الى الأندلس فأسسوا (قرطبة واشبيلية، (اسفيلية)، وميورقة، ومنورقة، وقرطيّة (برج قرطجنة)).

وبعد الحروب البونية انتصر الرومان على القرطاجيين من سنة ٢٥٥ ق.م. حتى سنة ٢٤١ ق. م. ولما آلت زعامة القرطاجيين الى هنيبعل سنة ٢٢١ ق.م. قاد حرباً ضد روما انطلاقاً من الأندلس سنة ٢١٨ ق.م ومروراً بجبال البيرنيه ثم جبال الألب، وهزم الرومان قرب روما، ولكنه هزم في معركة زامة سنة ٢٠٢ ق.م. بعدما انضمت آيبرية الى روما منذ سنة ٢١٢ ق.م. ثم أصبحت روما امبراطورية عالمية أخضعت آيبرية لسلطتها بعد مئتي سنة من الحروب، ثم نقل قسطنطين عاصمة امبراطوريته الى بيزنطة سنة ٣٣٠ م. وسماها «قسطنطينوبل» وصارت عاصمة للامبراطورية البيزنطية الشرقية الرومية الأورثوذكسية، وضعفت الامبراطورية الرومانية الغربية بعدما مات الامبراطور ثيوديسيوس سنة ٣٩٥ م.، وغزاها القوط حيث دخلها زعيمهم أدواسر سنة ٤٧٦ م وعزل آخر أباطرتها رومولوس أوغسطوس، وقام الصراع بين القوط والوندال ولكن الامبراطور البيزنطي جوستنيان قضى على الوندال سنة ٥٣٤ م. ثم قضى على القوط سنة ٥٥٣ م. بعدما ضم شبه جزيرة آيبرية الى الامبراطورية البيزنطية سنة ٥٣٥ م. ثم نشأت المملكة القوطية الغربية في آيبرية ٥٧٥ م.، وقرر المجمع المسكوني الثالث اعتماد المذهب الكاثوليكي سنة ٥٨٩ م.، وبدأ الصراع على السلطة منذ سنة ٦٢٣ م. حتى سنة ٧٠٨ م. حيث نصّبوا لزُريق (رودريك) ملكاً وخلعوا غيطشة (فيتسيا)، وساد الاضطراب السياسي والصراع المذهبي شبه جزيرة آيبرية.

في فترة الاضطراب الآيبرية كان الدعاة المسلمون يتوسعون شرقاً وغرباً في عهد الخلافة الاسلامية الأموية كامتداد للفتوحات التي عقد رايتها الأولى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وسار على سُنّته الخلفاء الراشدون ثم الأمويون. فوصل المسلمون الأندلس بناء على أمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إذ أمر عبدالله بن أبي سرح بتوجيه جيش الى الأندلس لفتح القسطنطينية التي «تفتح من الغرب» بحسب ما رواه الطبري في تاريخه وابن الأثير في كامله. وهذه المحاولة الأولى لم يذكرها المؤرخ عادل بشتاوي على رغم أهميتها؛ إذ اعتبر طليعة الفتح حملة طريف بن مالك النخعي سنة ٩١ هـ/٧١٠ م، ثم قاد الغزوة الكبرى طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م وخاض المعركة في ١٩ تموز (يوليو) ٧١١ م بعد نزوله على البر الاسباني في ٢٨ نيسان (ابريل) ٧١١ م وحقق النصر بعد معركة استمرت ثمانية أيام ثم توالت انتصارات المسلمين ودخل الأندلسيون في دين الله أفواجاً.

وقامت في الشمال حركات معارضة للمسلمين تزعمها بلايو (بلي، أو بلاي) الذي خلفه ابنه (فافيله) سنة ١١٩ هـ/ ٧٣٧م. ثم مات بعد سنتين فحلّ محله الفونسو الأول الكاثوليكي فامتدت زعامته حتى سنة ٧٥٧ م وسيطر على «منطقة استرياس وجليقية وليون، ثم خلفه ابنه فرويلة الأول فسار على نهج أبيه» وحينذاك شهدت الأندلس تمرد البربر ضد الاندلسيين والأمويين، ثم ساد التناحر وانتصر البشكنس (الباسك) على يوسف بن عبدالرحمن الفهري (٧٤٦ – ٧٥٦م) وحينذاك وصل الأندلس صقر قريش عبدالرحمن الداخل الأموي، وغلامه بدر، وقاد الصراع ضد الفونسو الثاني (٧٤٣ – ٧٩١ م)، وبعد ذلك قاد المسلمين الأمير محمد بن عبدالرحمن (٨٥٢ – ٨٨٦ م) ضد الملك آردون الأول (٨٥٠ – ٨٦٦ م) ثم استغل الفونسو الثالث (٨٦٦ – ٩١٠ م) مرحلة الاضطراب التي عصفت بالمسلمين فتقدم الى نهر دويرة. ثم جاء الخليفة عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله فقضى على حركات التمرد الداخلية وامتد حكمه من سنة ٩١٢م. حتى سنة ٩٦١ م، وأعلن الخلافة الاسلامية الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م وفي عهده ازدهرت الحضارة الاسلامية في الأندلس ووصلت القمة، وخاضت صراعاً مع رُدمير الثاني (٩٣٢ – ٩٥٠ م) وأصبحت الخلافة الاسلامية الأندلسية أقوى قوة عسكرية في عهد المستنصر بالله (٩٦١ – ٩٧٦ م) وخلفه ابنه هشام الثاني، المؤيد بالله وكان صغير السن فبدأت الانشقاقات وظهر ملوك الطوائف مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، وجابهتها قوات قشتالة وآرغون والبرتغال الموحدة التي أخضعت دويلات الطوائف فسقطت سرقسطة سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م، وانقضّت البرتغال على الأندلس جنوباً، وساهم الفرنسيون (الفرنجة) في سقوط الأندلس ابتداء من معركة تولوز (طلوزة) سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م، ثم معركة الزلاقة ١٠٨٦ م/ ٤٧٩ هـ، وساهموا في اسقاط سرقسطة ، وموقعة العقاب الحاسمة سنة ١٢١٢ م/ ٦٠٩ هـ التي دعمها البابا أنوصان الثالث، وسار على خطاه البابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١م) بإضفاء صبغة الحروب الصليبية على حرب الأوروبيين مع مسلمي الأندلس، وكرس فرناندو الثالث قديساً (١٢١٧ – ١٢٥٢م). ولما اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة سنة ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م، واعتلى فرناندو عرش آرغون بارك البابا سيكستوس الرابع (١٤٧١ – ١٤٨٤ م) اتفاق فرناندو وايزابيلا على مملكة غرناطة المسلمة كردّ انتقاميّ على فتح السلطان العثماني محمد الفاتح لمدينة اسطنبول سنة ١٤٥٣ م، وفتحه «١٢ مملكة و٢٠٠ مدينة في جنوب أوروبا». وهكذا مول البابا سيكستوس الحملة (كروثادا) ضد الغرناطيين وساهم في تمويلها «اليهود والايطاليون والهولنديون والألمان، وبعد موت فاسيكستوس استكمل البابا أنوصان الثامن (١٤٨٤ – ١٤٩٢ م) ما بدأه سلفه، فأحيا الحملة البابوية على غرناطة سنة ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م(...)

وكتب فرناندو الى البابا يبشره بانهاء آخر وجود اسلامي سياسي في شبه جزيرة آيبرية(...) في اليوم الثاني من كانون الثاني (يناير) سنة ١٤٩٢م». وتناول المؤلف في الفصل الثاني الثورة الأندلسية الأولى بعد توزّع الأندلسيين الذي أعقب سقوط غرناطة، وإطلاق البابا اسكندر السادس لقب: الملكين الكاثوليكيين، على فرناندو وايزابيلا سنة ١٤٩٤ م، فضيّقا الخناق على المسلمين بالتجسس عليهم بواسطة الكاهن خيمينس ومُخبريه مما سبب مقتل بعض مخبريه وأدى الى ثورة حي البيازين الغرناطيين ابتداء من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٤٩٩ م وامتدت الثورة الى الجبل الأحمر، وكان الرد باصدار ايزابيلا مرسوم تنصير الأندلسيين في ١٥٠٢/٢/١٢ م. ما أدى الى استشهاد وتهجير الكثيرين على أيدي قوات الامبراطورية الاسبانية الكاثوليكية.

ثم قامت الثورة الأندلسية الكبرى (أنظر الفصل الثالث ص: ١٤٥) بعد أن هاجم الكاثوليك المسلمين في بُلنسية ونصروهم بالقوة (١٥١٩ – ١٥٢١ م) وعمت الثورة في تلك الفترة أهل المدن في آرغون، وشهدت غرناطة تنفيذ أحكام محاكم التفتيش بحرق المسلمين سنة ١٥٢٩م، وازداد الصراع الكاثوليكي الاسباني مع الخلافة الاسلامية العثمانية في أوروبا الشرقية وسواحل البحر الأبيض المتوسط وشمال افريقيا فشدد الاسبان على المسلمين الحصار، وتنازل كارلوس عن العرش الاسباني لابنه فيليب سنة ١٥٥٦م فأعلن الحرب على المسلمين وعلى فرنسا وعلى البروتستانت، واعتبر البروتستانت هراطقة وأمر بإحراقهم أيضاً ودعم محاكم التفتيش، واتهم الأندلسيين بالتعاون مع العثمانيين سنة ١٥٦٥، ووقف البابا بيوس ضد التسامح الديني (١٥٠٤ – ١٥٧٢م) ودعا الى تحالف اسبانيا والبندقية ضد العثمانيين سنة ١٥٧١ م، وجرّاء ازدياد الضغط على مسلمي الأندلس بدأت شرارة الثورة في ١٥٦٨/٤/٢٥ م في جبل البشرات، ثم دخل الثوار غرناطة بقيادة فراس بن فراس ثم عادوا الى جبل البشرات مقرّ القائد العام للثورة ابن أمية (ابن هميّة) الذي سماه الاسبان هرناندو دي بالور. وكلف الملك فيليب أخاه غير الشرعي وابن محظية ابيه النمسوية، دون خوان النمسوي بالقضاء على ثورة المسلمين وبدأت المواجهات الشرسة منذ سنة ١٥٦٩ م وانتهت الثورة في منتصف سنة ١٥٧١ م بعدما استشهد ٢٠ ألف مسلم وجُرح ٦٠ ألفاً، وأُعدم عشرات الآلاف، ومات فيليب الثاني سنة ١٥٩٨ م وخلفه فيليب الثالث وبدأ تفكك الامبراطورية الاسبانية.

تناول الكاتب في الفصل الرابع طبيعة العلاقات الدينية في الأندلس وما أفرزته محاكم التحقيق، وهذا الفصل غني بالاحصاءات لأعداد المسلمين الذين حكمَ عليهم بالموت قتلاً وحرقاً وخنقاً، وأوضح دور البابوية الكاثوليكية في إذكاء نيران فتن الاضطهاد الديني للمسلمين واليهود والمسيحيين غير الكاثوليك واتهامهم بالهرطقة، وإباحة تعذيبهم وقتلهم بالوسائل اللاإنسانية كافة التي ابتكرها الطغاة عبر التاريخ. وجمع صور ما أنتجته محاكم التفتيش من مآس المؤرخ الاسباني خوان انطونيو لورنتي الذي جمع أربعة مجلدات قبل موته سنة ١٨٢٣ م وضمّنها وثائق المحاكم اللاإنسانية بما فيها من قصص الضحايا المحزنة. وذكر أن عدد الأندلسيين والأندلسيات الذين حُرقوا هو ٣١,٩١٢ رجلاً وامرأة وعدد الذين غُرِّموا ٢٧١,١٥٠، فبلغ عدد ضحايا المحاكم ٣٠٣,٣٦٢ أندلسياً وأندلسية، هذا باعتراف لورنتي «الذي شغل منصب الأمين العام لمحكمة التحقيق في مدريد» ونشر كتابه في باريس سنة (١٨١٧ – ١٨١٨ م). وتفيد الوثائق أن المحاكم استمرت بحرق المسلمين الأندلسيين حتى سنة ١٧٦٩م، وكان إلغاء محاكم التحقيق بأمر من الملك الفرنسي جوزيف الذي نصبه أخوه نابليون بونابرت ملكاً على اسبانيا سنة ١٨٠٨ م بعدما خلع ملكها فرناندو السابع، وقام نابليون باعتقال البابا بيوس السابع وسجنه إذ كانت البابوية مؤيدة لمحاكم التفتيش. لكن الاسبان استعانوا بالانكليز على الفرنسيين فأخرجوهم من اسبانيا سنة ١٨١٤ وأُطلق سراح البابا بيوس السابع. وعاد فرناندو الى الحكم فأعاد تأسيس محاكم التفتيش بموافقة البابا بيوس السابع، فقامت ثورة اسبانية ضده فاستعان بالفرنسيين فدخلوا اسبانيا سنة ١٨٢٣ وأخمدوا الثورة وعطلوا «محاكم التفتيش» إلا أنه حوّلها الى منظمات ارهابية عرفت باسم «عُصَبُ الإيمان» وشنقت معلماً سنة ١٨٢٦ بتهمة الهرطقة. وحُلّت محاكم «عُصب الإيمان» سنة ١٨٣٥ بعد وفاة فرناندو سنة ١٨٣٣. وفي ١٩٩٨/٩/١٩ اعتذر البابا يوحنا بولس الثاني «للبروتستانت عن الأذى الذي لحق بهم في القرن السادس عشر وما بعده على ايدي الكاثوليك...» وخلص المؤلف الى وصف ما خلفته محاكم التحقيق الاسبانية: بالتركة اللاأخلاقية الثقيلة.

عُقدَ الفصل الخامس تحت عنوانَ «تغريب الأندلسيين من اسبانيا» وتضمن مأساة الأمة الأندلسية قبل التغريب، وأسباب التغريب لاعتبارات اسبانية، وما صادف ذلك من انتفاضات الأندلسيين المُغربين، ثم عرض مواطن الأندلسيين الجدد بعد التغريب، وذكر أن «هناك حالات كثيرة عن إسبان ظلوا مسلمين حتى القرن التاسع عشر وربما بعده أيضاً...». وقدم معلومات مفيدة عن المسلمين في المغرب وتونس والجزائر وجنوب فرنسا وكورسيكا وألمانيا وهولندا وسويسرا وولايات السلطنة العثمانية في أفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية، ومستعمرات اسبانيا في أميركا الجنوبية.

ويمتاز الكتاب بعدد وافر من الرسوم والصور والجداول التاريخية والاصطلاحية، والمصادر والمراجع العربية والأعجمية مما يعطيه أهمية أكاديمية الى جانب تناول وقائع الأحداث بأسلوب ممتع وتحليل ثاقب للأحداث.

قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم:

خمسُ صلوات كتبهُنَّ
الله على العبادِ، من اتى
بهن بتمامهنَّ كان له
عند الله عهدُ ان
يدخلَهُ الجنة،
ومنْ لم يأت
بهنَّ فليسَ لهَ
عند الله عهدُ
انْ يدخلهُ
الجنة، إنْ شاءَ
عذَّبهُ وإن شاءَ
ادخلَهُ الجنة.

الله أكبر الله أكبر
اشهد أن لا إله إلا الله
اشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمداً رسول الله
أشهد أن محمداً رسول الله
حي على الصلاة حي على الصلاة
حي على الفلاح حي على الفلاح
الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله

رواه الامام احمد
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

المدينة	الفجر	الشروق	الظهر	العصر	المغرب	العشاء
مكة المكرمة	٤,١١	٥,٣٤	١٢,٢٠	١٥,٣٧	١٩,٠٢	٢٠,٣٢
المدينة المنورة	٤,٠٠	٥,٢٨	١٢,٢٠	١٥,٤١	١٩,٠٨	٢٠,٣٨
القدس المحتلة	٢,٥٣	٤,٣٠	١١,٣٩	١٥,١٨	١٨,٤٢	٢٠,١٤
ابو ظبي	٤,٠٢	٥,٢٩	١٢,٢٠	١٥,٤٣	١٩,٠٨	٢٠,٣٠
المنامة	٣,١٤	٤,٤٢	١١,٣٧	١٥,٠٣	١٨,٢٩	١٩,٥٢
الجزائر	٣,٣٨	٥,٢٦	١٢,٤٨	١٦,٣٨	٢٠,٠٤	٢١,٤٥
الخرطوم	٣,٥٥	٥,١٥	١١,٤٨	١٥,١١	١٨,١٩	١٩,٣٣
الكويت	٣,١٤	٤,٤٦	١١,٥٠	١٥,٢٤	١٨,٤٨	٢٠,١٥
الرباط	٣,٣٠	٥,١٣	١٢,٢٦	١٦,١١	١٩,٣٧	٢١,١١
الرياض	٣,٣٤	٥,٠٠	١١,٥٢	١٥,١٥	١٨,٤١	٢٠,١١
الدوحة	٣,١٢	٤,٤٠	١١,٣٣	١٤,٥٦	١٨,٢٢	١٩,٤٥
القاهرة	٣,٠٧	٤,٥٠	١١,٥٤	١٥,٣١	١٨,٥٥	٢٠,٢٩
بيروت	٢,٤٣	٤,٢٤	١١,٣٧	١٥,٢٢	١٨,٤٨	٢٠,٢٢
بغداد	٣,٠٩	٤,٤٩	١٢,٠١	١٥,٤٦	١٩,١٠	٢٠,٤٤
تونس	٣,٠٨	٤,٥٨	١٢,١٨	١٦,١٠	١٩,٣٦	٢١,١٨
جيبوتي	٤,٢٣	٥,٤٠	١٢,٠٧	١٥,٣٣	١٨,٣٠	١٩,٤٢
دمشق	٢,٤٠	٤,٢١	١١,٣٥	١٥,١٨	١٨,٤٢	٢٠,١٧
دبي	٣,٥٧	٥,٢٥	١٢,١٨	١٥,٤١	١٩,٠٧	٢٠,٣٠
صنعاء	٤,٠٩	٥,٢٨	١٢,٠٣	١٥,٢٦	١٨,٣٣	١٩,٤٨
طرابلس الغرب	٣,١٥	٤,٥٦	١٢,٠٧	١٥,٥٠	١٩,١٤	٢٠,٤٧
عمان	٢,٥٠	٤,٢٨	١١,٣٥	١٥,١٦	١٨,٤١	٢٠,١١
مسقط	٣,٤٩	٥,١٥	١٢,٠٥	١٥,٢٤	١٨,٥٢	٢٠,١١
مقديشو	٤,٣١	٥,٤٦	١١,٥٨	١٥,٢٤	١٨,٠٦	١٩,١٥
نواكشوط	٥,٠٢	٦,٢٤	١٣,٠٣	١٦,٢٣	١٩,٣٨	٢٠,٥٥
انقرة	٣,١٩	٥,١٧	١٢,٤٨	١٦,٤٥	٢٠,١٥	٢٢,٠٤
طهران	٢,٥٨	٤,٤٤	١٢,٠١	١٥,٥٠	١٩,١٥	٢٠,٥٥
اثينا	٤,٠٨	٦,٠٠	١٣,٢٤	١٧,١٨	٢٠,٤٥	٢٢,٣٠
برلين	٢,٣٨	٤,٤٤	١٣,٠٥	١٧,٢٩	٢١,٢٣	٢٣,١٨
بروكسيل	٣,١٩	٥,٢٩	١٣,٤١	١٨,٠٠	٢١,٥٢	٢٣,٥١
باريس	٣,٣٠	٥,٤٦	١٣,٥٠	١٨,٠٦	٢١,٤٩	٢٣,٥٥
جنيف	٣,٢١	٥,٤٣	١٣,٣٥	١٧,٤٥	٢١,٢٣	٢٣,٣٣
روما	٣,٢٥	٥,٣٢	١٣,٠٩	١٧,١١	٢٠,٤٢	٢٢,٤٠
سارايفو	٢,٤٥	٥,٠١	١٢,٤٦	١٦,٥٢	٢٠,٢٦	٢٢,٣٢
ستوكهولم	١,٥٩	٣,٣٦	١٢,٤٨	١٧,٢٣	٢١,٥٥	٢٣,٢٣
كوبنهاغن	٢,٣٤	٤,٢٨	١٣,٠٩	١٧,٣٧	٢١,٤٧	٢٣,٣٢
لندن	٢,٣٥	٤,٤٣	١٣,٠٠	١٧,١٩	٢١,١٢	٢٣,١١
مدريد	٤,٤٢	٦,٤٣	١٤,١٥	١٨,١٢	٢١,٤٢	٢٣,٣٣
نيقوسيا	٣,٤٥	٥,٢٩	١٢,٤٦	١٦,٣٣	١٩,٥٩	٢١,٣٦
واشنطن	٣,٤٦	٥,٤١	١٣,٠٧	١٧,٠٣	٢٠,٣٢	٢٢,١٨
اوتاوا	٢,٥٠	٥,١٣	١٣,٠٣	١٧,١١	٢٠,٤٨	٢٣,٠٠

* تقويم المركز الاسلامي في آخن ـ المانيا. ** يرجى مراعاة التوقيت الصيفي.